أسبوعيات نائب الاثنين ١٠ / ٣ / ٢٠٠٣

كي لا نفرغ القرب على وعد السحاب :

رئيس الوزراء وحسابات الساحات الدولية والإسرائيلية والجبهة الداخلية

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

نقلت بعض المصادر الفلسطينية عن السيد محمود عباس أنه سئل في أعقاب التوقيع على اتفاق أوسلو الذي كان صانعه الرئيسي من الجانب الفلسطيني مع السيد أحمد قريع : هل يمكن لهذا الاتفاق أن يحقق المستقبل المنشود للشعب العربي الفلسطيني ؟ فأجاب : ذلك يتوقف على أدائنا . فإذا كان جيدا فقد توفرت لنا بداية جيدة ، وإلا فلن ينفعنا أي شيء آخر .

كلام سليم . وملاحظة في محلها . وذلك بغض النظر عن الجانب الآخر من المعادلة ، وهو الخاص بالمجتمع الإسرائيلي وقواه المنظمة .. هل هو مؤهل للسلام أم متطلع إلى التوسع ؟ وهل سيدعم ذلك المجتمع الأحزاب والشخصيات التي صنعت أوسلو وأيدت أوسلو ؟ أم سيعزز جانب معارضي أوسلو في المعارضة وفي الحكم الذين بيتوا النية على عرقلة الاتفاق بأي ثمن ، ثم دفنه حيا (والذين نفذوا ذلك فعلا بقتلهم يتسحاك رابين) ؟ إن الموضوعية تقتضي الإقرار بأن هذا الجانب الآخر من المعادلة له واقعه وتاريخه وتفاعلاته المستقلة عن الأفعال وردود الأفعال العربية منذ حدوث الهيمنة الإسرائيلية على الضفة الغربية وقطاع غزة نتيجة الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ وانفتاح شهية ما يسمى اليمين الإسرائيلي للقفز من ذلك الوضع إلى مرحلة إسرائيل الكبرى ، وقدرة دعاته على تعبئة الجمهرات الإسرائيلية بعقيدة القمع والتوسع .

وعلى الجانب الفلسطيني جاء تأسيس السلطة وأداؤها مخيبا للآمال . ثم أصبح الأداء فاجعا بالنظر إلى حجم الفساد الذي استشرى بسرعة في التركيبة وفي الأداء معا ، دون أن يجد من يوقفه ، لا في السلطة التنفيذية

ولا في التشريعية ولا في القضائية . وعلى الرغم من سماع صيحات متتالية أحيانا ومتفرقة أحيانا أخرى تطالب بالإصلاح وتحذر من مغبة المضي في شوط الفساد المشؤوم ، فقد بقيت الأمور على حالها وعلى تفاقمها .

وكان أبو مازن بوصفه أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية مستغرقا في الموضوع السياسي والمسلك التفاوضي . ولم يكن صوته من الأصوات التي تصدت للفساد أو التي نددت به ، ومع ذلك فإن الكثيرين استذكروا قولته في البداية واستنبطوا منها اجتهادا أن الرجل إذا أوتي شطرا من السلطة التنفيذية بيده فسوف يكون أمينا تجاه رؤيته وينهج نهجا إصلاحيا أكيدا .

الخروج من عنق الزجاجة

فالحاجة إلى الإصلاح حاجة ملحة وحيوية منذ وقت بعيد . والمأمول أن لا يكون مفهوم الإصلاح عنده منصبا على نهج إدارة المفاوضات والعلاقات الخارجية - وهذا هو ما يقتصر عليه ويطلبه الأمريكيون والأوروبيون والإسرائيليون في حقيقة الأمر - . فنحن مع حاجتنا الماسة إلى حراك سياسي يتيح لنا الخروج من عنق الزجاجة الذي انحشرت فيه حياتنا وأنشطتنا وفعالياتنا اليومية ، لن نكون مؤهلين للاستفادة من أي وضع إيجابي إذا لم نملك مؤسسات الحكم والإدارة الناجحة البعيدة عن الفساد والترهل . وبعبارة أخرى إنه إذا كانت عودة الحياة الطبيعية مطلبا أوليا فإن الشرط الأول لإعادة الاعتبار للسلطة الوطنية ولتصحيح علاقتها بالمواطنين هو إصلاحها العاجل .

وثمة شيء آخر يتعين أن نذكر الأخ أبو مازن به ، مع حفظ الاحترام ، وهو رأينا الذي نحسبه مهما للغاية في صدد الجبهة الداخلية الفلسطينية . ففي جميع الأحوال ، ومهما يكن الوضع ، فإن رغبة الشعب الواضحة هي التغلب على وقائع وأسباب اختلاف وجهات النظر بين فرقاء الصف الوطني بالحوار لا بالقمع ولا بالعنف . وإن التعرض لأشد وأقسى تدابير العدو أهون نفسيا وعمليا من حرب وصراع داخلي بين فرقاء الخندق الواحد .

وكاتب هذه السطور هو من الذين يشاركون الرأي القائل إن على القيادة الفلسطينية اتباع سبيل السلام ووسيلة الاحتكام إلى الشرعية الدولية على الرغم من ميوعة مواقف تلك الشرعية ومن نفوذ الولايات المتحدة عليها . فقد كانت مظاهرات الغرب الحاشدة فعلا ملموسا ضد الحرب على العراق أثبت أن انتظار النصرة من الرأي العام الشعبي العالمي أقرب منالا في هذا الزمان من نصرة الأمة العربية والإسلامية الرازحة تحت نيرها الثقيل . وبرهنت أيضا أن أوروبا ولو كانت تنطلق في سياساتها من مصالحها في منطقتنا فإن اتخاذها موقفا مستقلا عن الولايات المتحدة قد قربها من الحق والعدل بالنسبة إلينا ، وتبين أيضا أن رجالا كشيراك يتحلون حقا بشجاعة رجال الدولة ، بقدر لم نلمسه في المنطقة حولنا . ومن الخير أن يصارح المرء نفسه فيما رأى بوضوح خلال البرهة القريبة الماضية ، فهي برهة أظهرت بوضوح خطأ وضع الغرب كله في سلة واحدة - وهو ما اعتاده كثير من المراقبين والمتابعين - . وأظهرت بالتالي وجوب القراءة الدقيقة للسياسات الدولية وطرق الاستفادة منها لتعزيز نضالنا .

هل بن لادن السبب ؟!

وفي المقابل علينا أن نقرأ بعناية أكبر التطورات التي جاءت باليمين الإسرائيلي إلى قيادة الشارع الإسرائيلي وكذلك التطورات التي جاءت باليمين الأمريكي إلى قيادة الساحة السياسية الأمريكية . فبعض الناس يتكلمون كما لو كانت عمليات الفصائل الإسلامية الفلسطينية والمقاومين الوطنيين واليساريين هي السبب في ظهور شارون وفي الشعبية التي حصل عليها وأيضا في اكتساح الليكود عددا غير مسبوق من مقاعد الكنيست في الانتخابات الأخيرة . ويتكلمون كما لو كان بن لادن هو السبب في رسم السياسة الأمريكية على النحو الذي يتهدد العراق والخليج . وهذا كله تسطيح ورأي فطير .

وفي الأشهر القليلة الماضية تردد في بعض الأوساط لغط متزايد مفاده أن عمليات تفجير بعض الشهداء أنفسهم داخل الخط الأخضر هي التي استدعت قيام شارون بالعمليات القمعية ضد الفلسطينيين ، بما في ذلك عمليات احتلال الضفة . وهم ينسون أن شارون وأمثاله عارضوا اتفاق

أوسلو أصلا منذ البداية وأن هدف شارون العقيدي هو استجلاب مليون يهودي، وبالتالي طرد مليون فلسطيني لإحلال اليهود المستجلبين محلهم . أما موقف الرئيس الأمريكي من العراق والمنطقة فمرجعه إلى النفط لا إلى بن لادن كما أن موقفه منا نحن الفلسطينيين يرجع إلى هدفه العقيدي وهو تعزيز إسرائيل وجمع اليهود من أنحاء العالم فيها لكي تسهل عودة المسيح وفق رؤية المدرسة البروتستنتية المتصهينة التي يقودها رجال من أمثال القس بات روبرتسون الذي هو المرشد الروحي الخاص للرئيس بوش وهو أول من يستمع الرئيس إلى توجيهه في صلاة صباحية بالبيت الأبيض ، كما أبان لنا الدكتور إدوارد سعيد في مقالة حديثة .

فلنضع الأمور في مواضعها فإن تفريغ القرب على وعد السحاب ليس من الحكمة في شيء .

إسرائيليون متشائمون

سمعت أن بعض الإسرائيليين المتدينين أبدوا تشاؤما حول مستقبل إسرائيل بسبب إمعان شارون ووزير دفاعه والمسؤولين الصهاينة السابقين في اقتلاع الأشجار الفلسطينية وتجريف المساحات الزراعية الخضراء . فقد قال أولئك المتدينون إن اقتلاع الأشجار نذير بنهاية الدول التي تقترف ذلك الفعل وإن الشواهد التاريخية قاطعة الدلالة على هذه الملاحظة . وأظن أن أولئك المتدينين هم من الفئة التي عناها القرآن الكريم بقوله : " إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . وقد كان من الوصايا المأثورة عن أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين لقادة جنده : " ولا تقطعوا شجرة خضراء " .

إلا أن شارون لم يبال في يوم من الأيام بأية قاعدة من قواعد الحرب ومن تقاليد آداب الحرب . فهو من المعروفين في أوساط الإسرائيليين أنفسهم بالغلظة والوقاحة ، وشهد دافيد بن غوريون الذي كان أول رئيس وزارة وأول وزير دفاع في إسرائيل أن شارون إنسان كذوب لا يجد إلى

الصدق سبيلا . ومجمل تركيب شارون وبنيته النفسية توحي بأنه يتلذذ بتعذيب الآخرين لكونه ينطوي على مخاوف عميقة وأحقاد مبيتة منذ طفولته المعقدة

لكن تسلط شارون وأشباهه على شجر الفلسطينيين ـ وآخره ما حدث عقب عملية حيفا في محافظة شمال غزة ـ هو أكثر من مجرد مخالفة لقواعد الحرب وتقاليد الحرب . إنه نوع من التطهير العرقي وإفناء الإنسان من خلال إفناء مقومات حياة الإنسان والأشياء التي تخصه وتمنحه الثبات في المكان . فالأشجار الفلسطينية هي التي تمد البشر الفلسطينيين بأسباب الحياة وهي في الوقت نفسه الشاهد على وجودهم والحبل السري الذي يربطهم بأرضهم. وأبرز مثال عليها شجرة الزيتون التي جعلها الإسرائيليون منذ وقت بعيد وليس منذ عهد شارون وحسب في رأس قائمة الأهداف التي لم يتوقف المستوطنون في الضفة الغربية طوال الوقت عن تدبير عمليات إحراق كرومها وعمليات تبوير مواسمها وتعطيل تسويق ثمارها وزيتها المبارك . فهذه الشجرة هي عماد حياة الفلاح الفلسطيني الفقير ، يختزن زيتونها وزيتها مؤونة لنفسه ولأولاده طوال العام . ولعل من أكثر المشاهد تعبيرا وإفصاحا عن قضيتنا كلها مشهد المستوطنين الطارئين المتطفلين على المكان يطلقون النار على المزارع الفلسطيني العجوز الذي كان يجني ثمار زيتونه . فلقد جاؤوا من بلاد أجنبية كانوا فيها مواطنين مستقرين ، وحلوا غصبا في أرض لم تكن ملكا لأحد منهم ؛ وقد بادروا صاحب الأرض بالعدوان ؛ وقد استندوا إلى قوة متفوقة مستمدة من عدة وعتاد لا يملكها خصمهم ؛ وقد استخدموا في صراعهم الوسائل والأساليب العنيفة الإجرامية القاتلة دون أن يطرف لهم جفن ؛ وقد استهدفوا المقدسات وموارد العيش ؛ وقد فعلوا ذلك كله رغم أنف العالم وتحت سمعه وبصره ! وحقا إن مصيرهم أسود !

طينة الصليبيين في الزمن الغابر

وعجينة الصليبيين في الزمن الأغبر

من يقرأ كتاب تاريخ الحروب الصليبية للمؤلف البريطاني ستيف رانسيمان يعثر على وقائع مذهلة وحقائق مثيرة للعجب . فمن ذلك أن الحملات البرية المتجهة من الغرب إلى فلسطين كانت تمر في خط سيرها بطبيعة الحال بالعديد من الممالك المسيحية . وحيثما مرت أطلقت يد النهب والسلب ، وأحيانا القتل ضد أهالي المكان أيا كانوا . وشمل ذلك بلدان خط السير ذات المذهب الكاثوليكي ، فقد وقعت فيها أحداث مشهورة لا سيما في الأرياف التي كان متطوعو الحملة يغزونها كالجراد . لكن ما حدث في تلك البلدان لا يعد شيئا بالقياس إلى الجرائم المروعة التي ارتكبها أولئك البرابرة ضد بلدان الشرق المسيحي التابعة للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . ففي القسطنطينية على سبيل المثال لم تنج الكنائس من أعمال النهب التي شملت الأيقونات والتحف الذهبية ، بل والرصاص المستخدم في سقوف القباب . ويتكلم رنسيمان مطولا عن مثل هذه الوقائع التي رافقت سيرة تلك الحملات من مبتداها حتى نهايتها .

ومن الحقائق المثيرة للعجب أن الغيرة على الأماكن المقدسة والحماسة من أجل الدين كانت بمثابة الإطار البراق الذي جمع بالإضافة إلى الرعاع الذين كشفت تصرفاتهم عن حقيقتهم نخبة معينة ذات أغراض أعمق وأعقد . فيقول رانسيمان إن نظام الوراثة السائد في البلدان التي أوفدت الحملات الصليبية آنذاك كان يحصر إرث الأب في الابن الأكبر . ولذا كانت هناك مجموعات كبيرة من أبناء العائلات المالكة الذين لا ممالك ولا أملاك لهم . وقد رأى النفر الميال للمغامرة بين هؤلاء في فكرة الحرب الصليبية فرصة سانحة لمحاولة الحصول في الشرق على ممالك خاصة بهم . وقادوا أولئك الرعاع ليستخدموهم في أغراضهم وطموحاتهم . ولو أمكن لأحد في ذلك الزمان أن يسأل واحدا من أولئك المغامرين : ما الذي أخرجك من بلدك لقال : إنها الرسالة والعقيدة !

وهذا يستدعي للذهن على الفور التصريح الذي أدلى به دونالد رامسفيلد قبل أسبوعين إذ قال إن أمريكا لا تريد نفط العراق ولكنها تريد حماية جيران العراق من العراق ولذلك تريد نزع أسلحته . فيا للعفة ! ويا للرسالة والعقيدة (وما هي يا ترى تلك الرسالة والعقيدة المطهرة التي تنبع

من بين أصابع رامسفيلد ؟ أهي رسالة السيد المسيح من منظور اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ومنظور خادم اللوبي الصهيوني وأجيره بات روبرتسون الواعظ الصباحي الخاص لكم ياسيد رامسفيلد في البيت الأبيض ؟ أقول لكم : إننا أهل المسيح وأبناء بلد المسيح نؤمن به ونفهمه أفضل كثيرا من فهمكم إياه ! أم ترى رسالتكم هي الديمقراطية وحقوق الإنسان ؟ وهل يكون ديمقراطيا حقا من يحاول جاهدا شراء الأصوات في مجلس الأمن ليزيف إرادة دولية تسانده ، وهل يتمتع بذرة من ديمقراطية من يقول : نحن لسنا بحاجة إلى قرار من مجلس الأمن لنضرب العراق ؟! أم أن رسالتكم الحقة هي نشر اليورانيوم المستنضب في ما تبقى من أنحاء العراق واستيلاد المزيد من الأطفال المشوهين ؟) .

جاك شيراك : أنت في خطر !

يملك الرئيس الفرنسي جاك شيراك ما يدعونه إطلالة محببة. ونحن الفلسطينيين لا ننسى زيارته مناطق السلطة الفلسطينية وخطابه في المجلس التشريعي الفلسطيني عام ١٩٩٧ . ولا ننسى بخاصة تعمد حكومة نتنياهو إهانته وإغاظته والتضييق عليه لدى قيامه بالزيارة الشهيرة للقدس القديمة ، وذلك بواسطة الحراس الإسرائيليين المرافقين وباسم المحافظة على أمنه ، حتى ضاق بهم ذرعا وصرخ في وجوههم معبرا عن استنكاره واستهجانه هذه الوقاحة والسفالة ضد رئيس دولة على هذه الدرجة من الأهمية .

ومع أنه كان يقول للرئيس ياسر عرفات مجاملا في تلك الأيام : إذا صعب عليكم أمر من الأمور فاقصدوا الدكتور شيراك (!) فإننا لم نكن غافلين عن أن الرجل الفرنسي الديجولي ذا القلب الدافئ هو بعد كل حساب مسؤول سياسي تحركه مصالح بلده التي تنشد استقلال سياستها الخارجية عن الولايات المتحدة . ولكننا كنا نقدر - مع ذلك - أن موقفه اقتضى منه شجاعة فائقة ، لأن القوى الصهيونية في فرنسا ، كما هو حال القوى الصهيونية في جميع بلاد العالم ، لا تقبل من الحاكم أقل من التطابق مع إسرائيل تطابقا كاملا في جميع أقواله وأفعاله . والخروج على هذا يؤدي إلى

تألب تلك القوى على الحاكم وإثارة المتاعب له . وأقل تلك المتاعب وصفه في الأبواق الدعائية بوصف (المعادي للسامية) .

وفي البرهة الأخيرة تجرأ جاك شيراك على تزعم الفريق الأوروبي والعالمي الذي يعارض تفرد أمريكا بالقرارات الدولية ، لا سيما قرار شن الحرب على العراق . أي أنه تصدى مباشرة للصهيونية الأمريكية والإسرائيلية التي تخطط لتدمير قدرات العراق والاستيلاء على كنزه النفطي . وإذا بالأبواق الصهيونية تنطلق في حملة سباب مقذع وتحقير رذيل ضد الرجل الكبير ، حتى دعوه (القواد) الذي يقدم بلده خدنا لصدام حسين . وكانت هذه السفالة المنفلتة من عقالها توحي بمدى فقدان الأعصاب وإطلاق الضغينة ضد فرنسا وزعيمها ، ناهيك عن حملات بنيامين نتنياهو ضد أوروبا كلها من أجل خاطر فرنسا .

ثم كانت في الشهر الماضي القمة الإفريقية ـ الفرنسية التي عقدت في باريس ، وكانت في الأسبوع الماضي زيارة شيراك للجزائر . ومهما حاولت الصياغات الدبلوماسية الفرنسية والجزائرية أن توحي بأن الزيارة ذات دلالات عادية ، فالحقيقة أن كلا من الزائر ومن أهل البيت كانوا على شعور واضح بالدلالة الخاصة لهذه الزيارة في هذا الوقت المحدد : الشعب الجزائري حيا موقف شيراك المضاد للسياسة الأمريكية ، وشيراك أقبل داعيا الجزائر وشعبها للسير معا تحت راية التصدي لسياسات أمريكا في العالم !

ومن هنا فإن على شيراك أن يحذر . وأن ينتبه إلى أجهزته السرية حصرا . فبعض تلك الأجهزة لعبت في الجزائر أدوارا لصالح الأمريكيين والصهيونيين . ولا بد أن للسي آي إيه وللموساد زعانفهما في باريس .. ولولا أن شيراك قاد حملة التصدي للتفرد الأمريكي لخشينا أن يكون من تلك الزعانف . ولنا عذرنا في تلك الخشية ، لأن دور فرنسا في الانقلاب الذي نفذه الجيش ضد الديمقراطية والدستور كان دورا متقاطعا مع السياسة الأمريكية ـ الصهيونية !!